الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

مجهودات جاك بيرك الاستشراقية
دراسة في نظرته للعرب والمسلمين

Jacques Berque's Orientalist Efforts
Study in his Perception of Arabs and Muslims

د.فتح الله محمّد
أستاذ محاضر (أ) ، معهد الآداب واللّغات بالمركز الجامعي الونشريسي-تيسمسيلت
medfrenda54@gmail.com

ملخص

يعالج هذا البحث مجهودات جاك بيرك الاستشراقية ونظرته للعرب والمسلمين، وهو موضوع يكتسي أهمية كبيرة نظرا لما يتمتع به هذا المستشرق من احترام في العالمين العربي الإسلامي والغربي. فنحن أمام فكر استشراقي مركب وأمام مسار استشراقي مثير للاهتمام والجدل في وقت واحد، ينم عن وعي بضرورة مراعاة مقتضيات الراهن الغربي وقيام الحاجة فيه إلى مطلب بلورة استشراق جديد متلون بألوان صراع الحضارات وحوار الحضارات والعلمية. وهو على قدر كبير من الأهمية والتعقيد.

وشهدت مجهوداته الاستشراقية في العالم العربي جدلا. فهناك من عده مستشرقا منصفا، وهناك من صنفه داخل إطار الاستشراق غير البريء، وآخرون نظروا إليه من زاوية العلمية والتفكير العقلاني.

و تتبع الظاهرة الاستشراقية لديه هو وقفة لملامسة هذا الموضوع ، ومحاولة لإضاءة جوانبه، الأمر الذي جعله موضوعا معقدا.

وإن ما حققه من تراكم استشراقي كمي ونوعي لم يجنبه الوقوع في مغالطات ، ويحاول البحث أساسا الوقوف على ذلك بغية رصد مجمل ما يتضمنه خطاب جاك بيرك من تناقضات.

الكلمات الدالة: الاستشراق، موضوع معقد، التعصب، الحوار، العلمية، جاك بيرك.

Abstract

This research deals with Jacques Berque's orientalist efforts and his outlook on Arabs and Muslims, a subject of great importance given the Orientalist's respect for the Arab and Islamic worlds. We are faced with a complex Orientalist thought and an interesting orientalism and debate at the same time. It is aware of the need to take into account the requirements of the Western present and the need to crystallize a new orientalism in the colors of the clash of civilizations and the dialogue of civilizations and sciences. It is of great importance and complexity.

His Orientalist efforts in the Arab world saw controversy. There are a number of Oriental oriental, and there is classified within the framework of Orientalism is innocent, and others looked at him from the perspective of scientific and rational thinking.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

And follow the phenomenon Orientalism has a pause to touch this subject, and an attempt to illuminate its aspects, which made it a complex subject.

And what he achieved from the accumulation of quantitative and qualitative Orientalism did not avoid falling into the fallacies, and trying to search mainly to see this in order to monitor the overall contents of the speech of Jacques Berque's of contradictions.

Key words: *Orientalism, a Complex Subject, Intolerance, Dialogue, Scientific, Jacques Berque.*

مقدمة

شهدت أوروبا في القرن العشرين استشراقا جديدا لاقى اهتماما واسعا، تشعب عنه قضايا ومشكلات تشعر من خلالها بنوع من التركيب والتعقيد، الأمر الذي ترتب عليه أن أصبح المنجز الاستشراقي البيركي ينهج نهجا مركبا في تناول العرب والمسلمين بالدراسة وهو مشروع فكري استشراقي لا يتردد في الإعراب عن الرغبة في دمج المعرفة العلمية الأكاديمية الصارمة بتصورات الاستشراق المنصف الذي اتسم بإلحاحه على وصل الغرب بالعرب من جهة،وربطه من جهة أخرى برؤية الاستشراق غير المنصف المضر بالعرب والمسلمين. وقد لا نجاوب الصواب عندما نذهب إلى القول بأن مشكلة الاستشراق البيركي هي جمعه وصهره لهذه المنظورات في بوتقة واحدة وظهورها داخل همه الاستشراقي، وأصبحت هذه الأمور هي الشغل الشاغل لهذا البحث عند محاولتنا تصنيفه.وتعرض الدراسة الحالية كيف استطاعت كتابات جاك بيرك ان تظلل القارئ العربي والمسلم وذلك بمحاولاته الملتوية إخفاء ملامح هويته التي تتجسد في فكره الاستشراقي على نحو يضمن للحضارة الغربية الاستمرار.

والأسئلة التي تفرض نفسها هي كالتالي:

- هل استنبت جاك بيرك فكرا استشراقيا ضد العرب والمسلمين؟

- هل المنجز الاستشراقي البيركي غاياته تستدعي مفهوم حوار الحضارات؟

- هل بلور جاك بيرك فهما علميا أكاديميا صارما؟

تمهيد

من سنحت له الفرصة أن يطلع على أدبيات جاك بيرك الاستشراقية يستطيع التنبؤ بأنه ظاهرة معقدة ومتعددة الزوايا والأوجه، ما انفكت تتزايد أهميته داخل المجال العربي والإسلامي، ولهذا السبب ينبغي عرضها وتوضيحها من أجل تبيان أن هذه الدراسات قد تلونت بألوان العداء والحوار والعلمية، وبهذه الطريقة نجد أنها ستنعكس على تلك الأدبيات المثيرة للجدل.

كان علينا أن نشير وننبه القارئ إلى مسالة رئيسية هي التصنيف العربي للأبحاث الاستشراقية، فالعرب يختزلون الاستشراق في استشراق منصف واستشراق غير منصف وقد يسعفنا هذا التقسيم إلى قراءة المنجز الاستشراقي البيركي من منظور عربي اختزالي وقد لا يتفق بعض الباحثين في الحقل على ذلك.

فقد عدت موسوعة الاستشراق في مادة البحث (مستشرقون) لتكريس هذا المنظور العربي وتناوله بالشرح الأمر الذي جعله يصفه على النحو التالي[1]:

1ـ **مستشرقون منصفون**: يتكئ دوما المستشرق هنا على "حسن النية". يميل نحو التحدث عن الإسلام بأسلوب ايجابي فيه كثير من المدح. انه يعول على بلورة استشراق هو مع الحضارة العربية والإسلامية.

2ـ **مستشرقون غير منصفين**: في الأحوال جميعها يستند هذا الاستشراق إلى "نية سيئة" تعمل على بلورة استشراق هو ضد العرب والمسلمين. ويزيد كاتبنا من التفاصيل الموضحة لهذا الاستشراق المغرض وفيما يلي تفريعاته:

أـ **مستشرقون مسيحيون**: يعول هؤلاء المستشرقين المسيحيين على تمسيح المسلمين وإرشادهم إلى المسيحية.

بـ **مستشرقون صهاينة**: أتى هذا الاستشراق الذي لديه ميولات صهيونية حتى يتمكن من الهيمنة على المسلمين وهو الموقف نفسه الذي رسمه الصليبيين قديما وظل مهوسا أيضا بإضعاف الإسلام.

تـ **مستشرقون استعماريون**: يعمل هؤلاء المستشرقين على تقديم خدمات جليلة للاستعمار الأوروبي.

ثـ **مستشرقون أحرار**: إلحاح هؤلاء المفكرين الأحرار على ضرورة إضعاف عقائد وأخلاق المسلمين خصوصا والإنسانية عموما.

على ضوء هذه المعطيات يمكن أن نفهم كثير من المواقف الاستشراقية التي أفرزها الفكر الاستشراقي من قبيل ما نجده عند جاك بيرك والحاجة على ضرورة تصنيفه ضمن إطار "الاستشراق المنصف" أم "الاستشراق المغرض"،وهي قضية ما تزال تجثم بظلالها علينا.

لذا سنخصص لها حيزا نقديا لنصبح قادرين مستقبلا على احتواء تعدد أوجه جاك بيرك وصولا إلى تجلياتها في منجزه الاستشراقي والتي رآها منبعا لمختلف أشكال الاستشراق فهو يوظف ويعمل على تطويع استشراق جديد ليصبح في مقدوره

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على تناول المسالة العربية والإسلامية التي واجهت الغرب في القرن العشرين.

1ـ استشراق جاك بيرك (جهد فكري ضد العرب والمسلمين)

1.1 المنجز الاستشراقي البيركي بوصفه حربا فكرية هادئة

نجد أن التفسير الإستشراقي الموروث يتخذ موقفا ثابتا، ومستمرا يتمثل في الموقف من الإسلام، وتلك الخطابات الاستشراقية ساهمت في تشكيل الرأي العام الغربي عن الإسلام سلبيا، وذلك بناءً على المنطلقات التاريخية المعادية للإسلام فعلا وعقيدة وسلوكا، ويعتقد أن الإستشراق من هذا الجانب له موقف ومقاربات، وهذا هو الشيء الذي يعيبه عليه الكثير، وذلك لأنها تتبع في معظم الأحيان تنافر ومعارضة ومعاداة الشرق ونادرا ما تلجأ إلى عكس ذلك، فمن «المرجح أن تكون علاقات الغرب بالإسلام... متوترة على نحو ثابت وعدائية جدا في معظم الأحيان»[2]، ولعل هذا الميل -في إسراف- إلى الصدام الحضاري والثقافي هو ميزة بعض من يرفض الآخر، وليس من باب المبالغة القول إنّه «طالما الإسلام يظل (وسيظل) كما هو الإسلام، والغرب يظل (وهذا غير مؤكد) كما هو الغرب في الحياة سوف يستمر في تحديد علاقتهما في المستقبل،كما حددها على مدى الأربعة عشر قرنا السابقة،هذه العلاقات يزيد من تعكيرها عدد من القضايا الجوهرية تختلف عليها مواقفهم أو تتصارع»[3]، وقد أخذ هذا الصراع بين الغرب والشرق بصيبه في التوغل فيما أنتجه المستشرقين من أعمال استشراقية، بل إنه حريص على أن يسود مجهوده الاستشراقي نزعة التعصب.

ويجب علينا أن نعترف بادئ بدء أن الاستشراق «في حقيقة الأمر كان ولا يزال جزءا لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم العربي، بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول: إن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع»[4]، وهنا ندرك كل الإدراك علاقة الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري.

وفي الوقت نفسه راحت تتولد حملة عربية مناهضة للاستشراق، فهي تعتبره كله بمثابة «نشاط علمي وفكري معاد للعرب والمسلمين، نشاط يرمي للإساءة إلى ثقافتهم ومجتمعاتهم»[5]، فضلا عن أنه في بعض جوانبه يعتبر «حلقة من حلقات "المؤامرة" الغربية الصهيونية الهادفة إلى تقويض الأسس الفكرية للإسلام والعروبة»[6]، وهذا ما حصل في مجال الاستشراق، وكيف يمكننا أن نتجنب مثل هذه العقبات و«الخطاب الاستشراقي الذي يتشكل في أنساق كثيرة واتجاهات متعددة تنطلق من تصورات ورؤى خاطئة ناتجة عن سوء فهم أحيانا وسوء نية أحيانا أخرى،كما تؤدي جميعها إلى نفس النتائج والأهداف،مما كان له أثر واضح في إذكاء روح التعصب ضد الإسلام»[7]، فمثلا نجد أن المستشرق "جاك بيرك"[8](1910-1995)(Jacques Berque) قد ظهرت ترجمته في«وسط تيار شنيع، تيار صراع وحرب صليبية جديدة، نعم للأسف الشديد لأن العرب والإسلام عموما يشكلون العائق الوحيد أمام إمبراطورية اليوم و أمام استقطاب اليوم تحت سيطرة أمريكا، فالسياسة الأمريكية وحلفاؤها وجدوا أمامهم الصعوبة الوحيدة أو شبه الوحيدة هي فلسطين وما حولها عند العرب»[9]، كل ما في الأمر هو أن الترجمة أو "نقل لمعاني القرآن" رأت النور في سياق صراع الحضارات، بمعنى حرب الخليج الأولى.

إن "جاك بيرك" مكلف بالحفاظ على الموقف المعارض،وهنا نجد برهانا ساطعا على تنافره مع العرب،فقد حرص في كتابه "العرب من الأمس إلى الغد" على أن «يهتم بالأراضي العريقة التي ترسم من الأقصر إلى البصرة قوسا دائريا مركزه الصحراء،ويستهدف سهمه فرنسا»[10]، يستهدف مباشرة بلده الأصلي فرنسا، و من المؤكد أن هذا الصف سوف يجعل من دراساته مجال لغط كبير، لأنه يجعل من الآخر العربي مصدرا للموت، هذا هو التعصب بعينه،كما ينبغي أن نعلم أيضا أن "جاك بيرك" رفض طويلا تسميته بمستشرق[11]، وهو بذلك ينزع غطاء التسمية،لأنه يعرف جيدا أنه تسود «في العالم الإسلامي نظرة تتمسك بعناد بالإستشراق الذي وصفه إدوارد سعيد،و كأنه المسؤول الأوحد عن موقف الغرب من العالم الإسلامي»[12]، وهذا ما فعله في البداية من أجل مسايرة العرب من جهة، ومن جهة أخرى معاكسة يعترف بأنه «اليوم يقبل هذه التسمية منذ صدور كتاب إدوارد سعيد، وذلك تضامنا مع زملائه الذين رأى فيهم بأنهم قد هوجموا ظلما»[13]، لابد وأن القارئ قد لاحظ ازدواجية خطاب "جاك بيرك"،بمعنى آخر فإن أسلوبه «مشهور بتحذلقاته الملتوية»[14]، ويشهد على ذلك مخرجاته الاستشراقية، ويقصد من وراء ذلك أنه اختار موقعه مع المستشرقين، وهذا ما فعله فعلا. إنه لا يتوانى عن الدفاع عن قناعاته إذا ما اقتضت الضرورة ذلك، فوظيفة المستشرق هي «تأكيد صحة صورة الشرق في عيون قرائه،فهو لا يحاول ولا يريد زعزعة المعتقدات التي رسخت في جذورها »[15]، بمعنى آخر فإنه لا يتراجع عن المواقف الاستشراقية التقليدية، وربما خفف من حدتها عن طريق حيله وقدرته الكبيرة على الكتابة، ومحاولته إخفاء رؤيته الاستشراقية قدر المستطاع، ذلك أن ما يعبر عنه من أفكار إنما ينم عن تموقع استشراقي متعصب إن لم نقل معاداة العرب، فالمسألة هنا مسألة انتماء إلى كيان جغرافي وثقافي غربي لا غير،في مقابل الكيان الجغرافي والثقافي الشرقي، وإذا به يحيد شيئا فشيئا عن الجادة، وينجم عن ذلك أن «نبذ الاستشراق –بمعنى جزء من المعرفة الغربية- هو رهان إنكاري،لا يدافع عنه... في الواقع أننا لا نرى أحدا في الشرق يرد الطائرات، والحواسيب والسيارات»[16]، أتى بيرك ليدافع ويقوي إطار الاستشراق القديم الأمر الذي جعله يشير إلى إسهاماته التعليمية وعن إفادة العلماء العرب منها وذلك عن طريق مدرسين من أصول أوروبية في إشارة منه لقيمة الدراسات الاستشراقية التكوينية الرائدة. وينجم عن ذلك أن ما يعبر عنه من أفكار إنما ينم عن تعصب مطبق تمليه عليه طبيعته

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الغربية التي تريد السيطرة على الشرق. وأدى ذلك إلى بروز «مستشرقين درسوا العلماء العرب، المناهج الحديثة لدراسة النصوص، والاستجوابات والاستقراء انطلاقا من الدلائل، والبحث والاكتشاف للمصادر، باختصار النقد التاريخي، كل هذا انطلق من العرب ثم وصل إلى العلماء المسلمين»[17]. وهذا دليل على أنانية واضحة، بل واحتقار للعلماء المسلمين من طرف "جاك بيرك"، وهذا يخلق هوة واسعة بين الأستاذ الغربي والتلميذ العربي والمسلم لأن الأول حسبه درَّس وعلَّم ولقن الثاني المناهج الغربية المتمثلة في المنهج التاريخي، ومن المعلوم أنه يريد التحدث عن «التفوق الغربي والدونية الشرقية»[18]، وسوف يكون من غير الإنصاف ألا نأخذ بعين الاعتبار تأثير هذه الرؤية في "جاك بيرك" ومنتجاته الفكرية.

كما يرى البعض بما فيهم لفيف من المفكرين العرب بأن الدراسات الاستشراقية ارتبطت ارتباطا قويا بالاستعمار إنما وقع بسبب ميلادهما معا وذلك في وقت واحد وخضعا لشروط التجنيد نفسها وبحجة الحاجة الملحة لخدمة الجيش الاستعماري.[19]

ولعل هذا الميل في إسراف إلى توظيف كان له الأثر البالغ في الهيمنة على الشعوب العربية والإسلامية فوجب على هؤلاء اختراق تلك الأوساط من أجل تجميع المعلومات وليس من باب المبالغة القول إن الاستشراق قد كان عبارة عن وسيلة خداع.[20]

وإليكم أهمّ كتب بيرك في الموضوع:

- القرآن، محاولة ترجمته من العربية، متبوعة بدراسة تفسيرية،1990

(Le Coran : essai de traduction de l'arabe annoté et suivi d'une exégétique)

- إعادة قراءة القرآن،1993(Relire le Coran)

- أيُّ إسلام (Quel islam ?)

وهذا هو سبب تردد المفكر العربي في استقبال الأدبيات الاستشراقية ويستمر في استخدام الحذر منها لأنه اكتشف بشكل فاحص عن الكيفية التي تم بها التعاون الأبدي بين الامبريالية والاستشراق.

ويبدو أن بيرك لا يشذ عن هذه القاعدة وخاصة عندما دعا وبقوة إلى استثمار مكتسبات الامبريالية التي ساهمت بشكل كبير في تعميم الثورة الصناعية.[21] الأمر الذي يشي بان الرجل يقدر الاستعمار ومنجزاته ومن وجهة النظر هذه يمكن القول بأنه "يجب على الدول المتقدمة أن تضم أو تحتل مناطق الأرض التي توصف بأنها غير متحضرة"[22]. وليس من باب المبالغة القول انه يريد إلى حد بعيد أن يجعل من الغربي جنسا حاكما ومن العربي والمسلم جنسا محكوما ويمكن الاعتقاد أن الكاتب ليس بمعزل عن الاستشراق الاستعماري المتعصب.

2_1 توظيف بيرك لثنائية متخلف ومتحضر

كان كتاب "العرب،الإسلام ونحن"(Les Arabes ,l'islam et nous) مناسبة تناول فيها الأمور الإسلامية،ليس هناك ما يثير الاستغراب بالنسبة إلى الذين اعتادوا قراءة نصوص بيرك سطحيا.

فقراءة أولى للعنوان والحفر في بعض مبهماته،من قبيل "العرب"و"الإسلام"و"نحن"،وذلك بغية استنطاق المستغلق.

ويقودنا التحليل إلى الكشف عن رؤيته الاستشراقية غير البريئة إلى أقصاها.

والعنوان يطرح تضاد كبير بين الإسلام والغرب،واتى ليكرس«في نهاية الأمر رؤية سياسية للواقع،وكان بناء هذه الرؤية هو الذي يعزز الفرق بين المألوف (أوروبا أو الغرب أو "نحن")، وبين الغريب (الشرق أو "هم")،ومن زاوية معينة أدت هذه الرؤية إلى غلق هذين العالمين بهذه الصورة، ثم عملت على ترسيخها،فكان الشرقيون يعيشون في عالمهم،و "نحن" نعيش في عالمنا»[23]، إن خطابه الاستشراقي يتكئ دوما على التمييز بين الفضائين الجغرافيين والثقافيين واللغويين الغربي والإسلامي،الأمر الذي جعله يتموقع داخل عالمه الغربي لينظر في الأخير إلى الإسلام من الخارج.

والكتاب من هذه الجهة يطرح تحديا كبيرا أمام الإسلام وخاصة عندما تسبب محتواه نسبيا في زيادة «غربية الغربي»[24]. وهنا لا يتردد بيرك في الإعراب عن تجذره في هذا المشروع الفكري التقليدي الذي يستدعي «الحد من التلاقي الانساني بين الثقافات والتقاليد والمجتمعات البشرية المختلفة»[25].

ونفهم من ذلك أن بيرك يريد يشير من خلال عنوان الكتاب إلى دخول دائرة صدام الحضارات والكف من اقتراب العالمين نهائيا.

وانتهج في ذلك طريقة في مقارنة بين سياق نشأة النهضة الاوروبية والنهضة العربية الحديثة. وقد كان من الطبيعي أن يقف على ذكر الفتوحات العلمية والفلسفية التي قام بها كل من غاليلي(Galilée) ونيوتن(Newton) وديكارت(Descartes) الذين قاموا بقفزات كيفية بالنسبة للفكر الغربي[26].

وصولا إلى تجلياتها على تطور المجتمعات الغربية في مقابل تخلف العالم العربي والإسلامي الذي أراد اللحاق بالغرب الحديث والمعاصر في محاولة ردم الهوة السحيقة التي تفصلنا عنهم،وعبر عنها بعبارة التفاوت الزم[27](décalage temporaire)، يمكن قياسه زمنيا بقرون.

واضح ان الغرض من استدعاء مفهوم المقارنة يختزل في مجرد رغبة في «التمييز المتأصل بين التفوق الغربي والدونية الشرقية»[28]، وعلى ضوء هذا القول يمكن أن نفهم موقف بيرك الذي لا يتردد في التنبيه إلى مسألة أساسية هي التفاوت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التاريخي والحضاري بين العرب والغرب.

3.1 ارتباط الاستشراق بميولات جاك بيرك الدينية-اللاهوتية

فالمنزلقات والمغالطات التي وقع فيها الاستشراق غير المنصف هي الدراسات القرآنية الغربية والدراسات المحمدية وأضحت تشكل اليوم المأخذ الحقيقية ومواطن قصور تلك الدراسات المثيرة للجدل. فهذه القراءة تريد أن تتعامل مع النصوص التأسيسية للإسلام بطريقة تهدف إلى شرح المسيحيين للمسلمين أن الإسلام هرطقة مسيحية[29]. إذ لا يتردد هذا الاستشراق في عد ديننا الحنيف بدعة مسيحية وتقليد استشراقي توارثه منذ القديم صحيح تبدلت الاستراتيجيات والمناهج والمقاربات والطرائق وتكتيكات ولكن الهدف ظل مرسوما بحكمة "دحض الإسلام" منذ القرون الوسطى الأوروبية ومازال واضحا وجليا اليوم لم يغير ويبدل أبدا.

أما فيما يخص مسألة ميولاته الدينية اللاهوتية، فقد كان تحدث عنها ،حيث اعترف صراحة بأنه «كاثوليكي يحب الإسلام»[30]، وهنا في هذه النقطة ينبغي أن نتوقع تأثير عقيدته الكاثوليكية في أدبياته الاستشراقية، وسيران روح مسيحية كاثوليكية فيها وقد يكون السبب الديني وراء دراسته للقرآن والإسلام،ولم يكن ممكنا أن تكون الأمور على غير هذا النحو، ذلك أنه بعدما درس القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كان قد نشط في معتقداته الكاثوليكية[31]، وهو هنا لا يتخلى عن المنظور العقدي الكاثوليكي، وسيؤثر هذا الموقف الديني المتشدد على نحو كبير في إنتاجه،وسوف نجد مثالا طيبا لهذا السبب، عندما يصف خلوته، التي كان هدفها الأوحد ترجمة القرآن تلميحات مسيحية أوروبية متجذرة في العصر الوسيط،وهكذا نجد أنه يؤكد بأن خلوته التي تتموقع جغرافيا بمدينة أجداده «Saint- Julien- En- Borne (Landes)»بفرنسا حيث «تجتمع كل الحقائق في هذه الدار القديمة أين عشنا سنوات العمل، في وسط قروي محلي جنوب- غرب فرنسا، مرحلة الألف سنة على طريق القديس- جاك دي كومبوستيل»[32]، فهو يشعر بالضرورة القصوى للعيش و القيام بالعمل الترجمي الكبير داخل ذلك المناخ الذي يحيلنا مباشرة إلى أوروبا الغربية القروسطية، زمن الصراع بين الإسلام والمسيحية الأوروبية، وإذا ذهبنا بعيدا نرى أن ذكره لمزار "القديس -جاك - دي كمبوستيل" له دلالات عميقة،إنه«أحد الأمكنة المقدسة[محج] الأكثر ترددا عليه من طرف المسيحية الغربية... هذا الحج أخذ مدى في القرن الحادي عشر،وذلك مع حروب الاسترداد»[33]، ألا يجب علينا في بداية التحليل أن نتساءل أيضا عن دوافع "جاك بيرك" من وراء ذكره لذلك المناخ القروسيطي.

وهي في الحقيقة تعزى إلى تزامن القديم والحديث في تزامن الفكري المتعدد الأوجه، وفي مثل هذا السياق،يرى أحد الباحثين أن «التراث الفكري يؤثر فينا قوي التأثير، في المجال اللاشعوري غالبا، فنحن "مبرمجون" حضاريا وثقافيا برمجة ذات أثر في نظرتنا إلى العالم وما ستتبعه من طريقة في التفكير والعمل، وتأتي تناقضات تراثنا الفكري من الأزمات التي حدثت في العصور التاريخية وخلقت موجات من الكبت الجماعي الخطير، كما تأتي هذه التناقضات من "تزامن القديم والحديث"، أي أن عناصر من التراث الفكري من عصور مختلفة يواكب بعضها بعضا في الوقت الحاضر وتؤثر في حضارتنا الراهنة»[34]، فالرواسب وتصورات تراث أوروبا الفكري في العصر الوسيط، ما زال شائعا جدا لدى بعض المستشرقين، إذ انخرط "جاك بيرك" في هذا النهج المشبع بالأحكام المسبقة،والتي تحجب رؤية الأمور الإسلامية بوضوح، وبالتالي فإننا سنشهد في ترجمته للقرآن إعادة اندلاع الصراع من جديد بين العالمين الإسلامي والغربي المسيحي، وذلك مثلما حدث أثناء حروب الاسترداد، والحروب الصليبية، فهناك حنين كبير للماضي، من الواضح أن «من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر فترة تحولات عظيمة في التاريخ الأوروبي، نشأت فيها الهوية الأوروبية»[35]، إنه يريد الكشف بشكل دقيق عن الكيفية التي تمت بها ترجمته للقرآن أنه مكلف بالحفاظ على القديم ودمجه مع الحديث،وقد سيطرت بالفعل على مواقفه الترجمية.

وها نحن نشهد إسقاط هذه المسائل الاستشراقية على نقل معاني القرآن إلى اللغة الفرنسية، بل ويحاول إعادة بعث الماضي القروسطي، فالواقع أنه ما دام واقع تحت سيطرة القديم المنتسب إلى الصراع الديني،فمن المؤكد أنه سوف ينعزل أكثر فأكثر عن الكتابة المحايدة العادلة والمنصفة.

وتحت ضغط هذه الرؤية كشفت ترجمته في الوقت ذاته عن تسفيه «معاني ذلك القرآن الذي يجذبهم بروحانياته وباتزان تعاليمه الشاملة للحياة الدنيا والآخرة،آملا في الحد من هذه الموجة الآخذة في الانتشار رغم القهر،ورغم محاولات الإبادة»[36]، فمن المتوقع أنه يريد ألا يتسع هذا الدين، بل يريده أن يتراجع تدريجيا، كما يدعو "جاك بيرك" صراحة إلى تغيير «النص القرآني، خاصة وأنه غير صالح لكل زمان ومكان،وبالتالي فهو لا يتماشى مع متطلبات العصر الحالي»[37]، ولا يخفى على مسلم واحد أن قضية الدراسات القرآنية والمحمدية الغربية قد أصبحت أهم وأشد الموضوعات المثيرة للجدل داخل قلعة الاستشراق.

وقد يلجأ "جاك بيرك" في أماكن عديدة في ترجمته خاصة إلى التشكيك في القرآن الكريم ومحمد –صلى الله عليه وسلم- ولكن بطريقة فيها الكثير من الدوران والحيلة، فأسلوب المعالجة الاستشراقية هو المنهج العدواني في دراسة الإسلام،ولعل«أبرز ما يميز هذا المنهج هو ذاتيته ومجانبته الكاملة للموضوعية إلى جانب عدوانيته السافرة... وصفه بالمنهج العدواني في دراسة الفكر الإسلامي،وهذا المنهج المتطرف قد شكلته المدرسة الاستعمارية الاستشراقية التي تزعمها كل من الاستشراق الإنجليزي والاستشراق الفرنسي»[38]، ويلجأ الكثير من المستشرقين إلى عدوانية منهجهم، خاصة في تلقي النصوص القرآنية، ولم يكن ممكنا أن تكون الأمور على غير

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا النحو،ذلك أن عدم قبول الآخر العربي والمسلم ورفضه ربما كان سبب ذلك يعود إلى انخراط هؤلاء الدارسين في نهج «الأخذ بالنزعة التأثيرية وهي نزعة دراسية يأخذ بها المستشرقين الذين اعتادوا رد كل عناصر منظومة الإسلام بعد تجزئتها إلى اليهودية والنصرانية»[39]، وأصبحت النظرة للإسلام نظرة عدائية، وترسخت في الإنتاج الاستشراقي أن مصادر الدين الإسلامي مصادر يهودية ومسيحية،وبالتالي فإننا نجد أنفسنا أمام رد الموضوعات القرآنية المبثوثة في الإنجيل والتوراة[40]، هنا تكمن منهجية الدراسات القرآنية والمحمدية الاستشراقية.

وهذا هو سبب الحملة العربية المناهضة للاستشراق لأسباب ودوافع دينية وسياسية وقومية[41]، على أي حال ينبغي النظر إلى الاستشراق المتعصب من منظورين، والمنظور الأول يرى في الاستشراق «نشاطا علميا وثقافيا يهدف إلى تقويض الدين الإسلامي، والتشكيك في العقيدة الإسلامية»[42]، أما المنظور الثاني فيرى أن الدراسات الاستشراقية ترمي إلى «زرع بذور الشك في الهوية القومية العربية وصولا إلى تفتيت الأمة العربية ونسف تطلعاتها الوحدوية»[43]، وهذا التصور العربي يعطي الأولوية إلى مقاومة نزعة التفتح، والانغلاق والتقوقع على الذات باسم الهوية العربية والإسلامية، ورفض قراءة الآخر الغربي لتراثنا العربي والإسلامي.

2ـ استشراق جاك بيرك (جهد فكري مع العرب والمسلمين)

1.2 القراءة الاستشراقية البيركية المحترمة

على أي حال ينبغي الخروج من إطار نعت الاستشراق كممثل أبدي لصراع الحضارات، ونذهب إلى أبعد من ذلك الاعتقاد بأن تلك الدراسات تقوم على فكرة حوار الحضارات هدفها تأييد ومناصرة الإسلام. واستطاع بيرك أن يشق دربا استشراقيا جديدا قد يسعفهم برؤية أخرى لفهم العرب والمسلمين تميز بإلحاحه على وصل الغرب بالعرب أو ربط الشمال بالجنوب. وقد كتب في هذا المجال مباحث.

إنّه يعتقد أن جهوده تنصب في حقل حوار الحضارات بغية تجاوز الاستشراق الاستعماري الذي خلف وراءه جروحا وندوبا لدى الشرقيين لا تنسى. ويبدو أن للأمر صلة بإيمانه العميق بجدوى تأسيس لقواعد "العيش المشترك".

فهؤلاء المستشرقين قدموا لنا قراءة استشراقية مغايرة فيما يخص موضوع الإسلام، ومجهوداتهم تكشف بشكل دقيق عن الكيفية التي تم بها التعامل مع الآخر الغريب،بحيث حاولوا جاهدين الاهتمام بالآخر عن طريق احترامه وتقديره، لكنهم يتحدثون عن غيرهم في كتاباتهم، بمعنى يتحدثون من زاوية منطلقاتهم على قيم الآخرين، فأعمالهم مجهود بشري يندرج في إطار الغيرية، حاولوا إنصاف الإسلام قدر الإمكان وذهبوا إلى محاولة تعديل بعض الرؤى المتشددة.

وكيف يمكننا تجنب قراءة الآخر الغربي للتراث العربي والإسلامي، فنجد أن «العالم أصبح "متداخل الأديان" أو "متشابك الأديان" "inter –religions world"، فمنذ الحرب العالمية الثانية اختلط أصحاب الديانات المختلفة بعضهم ببعض الآخر بدرجة لم يشهدها تاريخ العالم من قبل»[44]، هذا ما حصل فعليا في القرن العشرين،وانعكست الآن في الدراسات الإسلامية،كما وينبغي ألا ننسى بأن هذا التداخل قد يفسح المجال إلى انتشار نتائج قراءة الآخر العربي عن الإسلام في الأوساط العربية،وكل ذلك قد يساعد على رؤية الأمور بشكل واضح.

وهكذا راح الهم الفكري لـ "جاك بيرك" يتلون بلون جديد، ويوسع بذلك مجال الاستشراق، وانشغل بالحوار مع الآخر.

إن الخطاب البيركي يتكئ على شعار يخدم تشابك الثقافات وفيما يلي ما انتهى إليه: «لم نبذ رؤية الآخر،بينما نحن نعرف جيدا،أننا بدون الآخر لن نكون؟»[45]، على ضوء هذا القول يمكن أن نفهم تبلور عالم بيركي(L'univers berquien) يشدد على الآخر الإسلامي،والحاجة الشديدة على ضرورة العيش معه وبدونه يهلك الغرب.

الأمر الذي جعله يوصف من طرف البعض بأنه "عابر الضفتين"، فهو يمثل من منظور الأغلبية خط وصل يجمع ضفتي المتوسط[46](trait d'union entre les deuxrives). نعتقد أن هذه النقلة الاستشراقية من صراع الحضارات إلى حوار الحضارات حاسمة جدا، وينبغي أن تحظى باهتمامنا الآن، نقول ذلك وخصوصا إذا كنا نعلم أن «عقيدة الإسلام أصبحت موضوعا للبحث الرصين شرع فيه من زاوية نظر جديدة، وهذا التغير في الموقف والنية هو مدين للمصنف الضخم، وإلى السطوة، وإلى الشهرة العالية لتلك الشخصيات المسيحية العاشقة للحقيقة، والتسامح، وللأخوة الإنسانية»[47]، وأمام معطيات استشراقية ضخمة ومهولة كهذه،وأمام الحاجيات الاستشراقية والملحة للمجتمعات الغربية لإعادة قراءة تراثنا بزاوية نظر جديدة تدعي التسامح واحترام الآخر فيبدو لنا أن «السيد جاك بيرك مستشرقا ممثلا للمدرسة الحديثة، مدرسة ما بعد ماسينيون»[48]، وقد لقيت أفكار هذه المدرسة اعترافا من طرف المستشرقين الجدد، وضمن سياقات تاريخية واجتماعية محددة تماما ادعى إلى دخول الغرب في حقبة تاريخية جديدة على الصعيد الاستشراقي تستند إلى «احترام "الآخر" والتعاطف الفكري للموضوع المدروس تستعرض على نحو تقدمي الأحكام (غير المنصفة والباطلة) الملقاة من الخارج»[49]، نقول ذلك خصوصا إذا كنا نعلم أنه يمثل الاستشراق الجديد (néo-orientalisme)يجر مشروع فكري غربي مبتكر لا يختزل الاخر الشرقي في صورة نمطية مشوهة.ويثير بيرك بتلويناته المتعددة مشاكل عويصة،وكان يحرص أكثر على ترجمة القرآن،حيث يرى فيها بأنها «ستمدد اللقاء»[50]، ويبقى صحيحا القول بأن المهمة الترجمية الملقاة على عاتقه تبدو صعبة، ولكن الانخراط في هذه العملية سيطيل الحوار مع "الآخر الإسلامي"، وهكذا نجده ينعت نفسه بأنه إنسان يقف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمام سد بدأ ينكسر، ويحاول بكل ما أوتي من قوة أن يحول دون ذلك[51]، وسيلتحق في ما بعد وبشكل صريح بهؤلاء الذين فتحوا له طريقا استشراقيا جديدا أمثال "لويس ماسينيون"، فهو هنا لا يتوانى عن التراجع قليلا أو التخفيف من حدة نظرة التعصب، وقد وصف تأثير أمثال هذا الموقف الجديد على النحو التالي: «لا أتحدث عن نظرة الآخر بشكل مطلق، أتحدث عن نظرة الآخر بشروط الأدب،وأتحدى أي واحد أن يجد في كل ما كتبته من بداية مشواري حتى الآن، أي كلمة تمس شرف الإسلام أو تمس العقيدة الإسلامية، دائما عندي تأويل أو تفسير وأقول ذلك في نظر المسلمين كذا وفي نظر غير المؤمنين كذا ولا أقطع»[52]، وقد كشف عن حجم التعديل الاستشراقي الذي يجريه لكي تتأقلم هذه الرؤية "احترام الآخر" مع التراث العربي والإسلامي،وراح يستخدمها في قراءته المحترمة والبعيدة كل البعد عن الأحكام المسبقة،وبذل كل ما بوسعه في دراسة "الآخر" لجعله واضحا، أو أوضح ما يكون بالنسبة للقارئ الغربي، وكمفكر كبير يظهر في الساحة الاستشراقية يحاول أن يكون جسرا بين المسلين والغرب.

كما دعا بيرك أيضا إلى قلب العلاقة من علاقة ذات الاتجاه الواحد غير العكسية بين طرفين متضادين ليس لهما المكانة ذاتها، فالأول(الغرب)يمثل المركز والثاني (العرب والمسلمين) يمثلان الهامش إلى علاقة جديدة تستند إلى التبادل والتفاعل والتداخل بين الطرفين السابقين. من هنا يسعى بيرك إلى الاعتراف بالطرف المقابل له واحترامه والتسامح معه بل والعيش معا في فضاء ثقافي تغلب عليه التفاعلات بين الأنا الأوروبية والآخر العربي[53].

2.2 المستشرق حليف للعرب والمسلمين

ولحسن الحظ اتخذ كبار المبدعين الغربيين من هذا المنظور موقفا، وعلى هذا النحو شكلوا «همزة وصل بين الثقافة العربية الإسلامية وبين الثقافة الغربية، وبين المجتمعات العربية الإسلامية، وبين المجتمعات الغربية،لأنهم مؤهلون لهذا الدور علميا وثقافيا»[54]، وأيا يكن من الأمر فإن هؤلاء يشذون عن قاعدة التعصب، وكانت نزعتهم المبتكرة توجههم نحو الحوار،حيث ساعدت أعمالهم العرب والمسلمين في بعض المجالات، وتشهد على ذلك مجهوداتهم التي تعتبر إنجازات، وذلك مقابل التقصير العربي المريع جدا في تلك المجالات،فهم بذلك يلعبون دور الحلفاء، هكذا نلاحظ أن نزعة التسامح في الفكر والسلوك تفرض على العرب والمسلمين تقبل آراء ووجهات نظر المستشرقين، وذلك عندما تختلف وتصطدم مع وجهات نظرنا، وهذا يدفعنا للإحساس بضرورة «الحوار العلمي في هذا المجال مع من يرغب من مترجمين معاني القرآن الكريم، والشعر العربي، والأدب إلى الفرنسية، أو غيرها... ولا أحبذ الهجاء والسب والمديح والدفاع والانحياز، وإنما التحليل والبحث والتنبيه على مواطن القصور والنقص المصحوبة بالدراسة، والنقد العلمي... ومساعدة من يقبل المساعدة من هؤلاء –وأرى أكثرهم لا كلهم- قابلين وآخذين بالكثير من توصياتنا ونصائحنا فيما يخص ترجمة المعاني في القرآن الكريم على وجه الخصوص»[55].

نتصدى للحديث عن الاستشراق سوف يكون من المفيد أن نرد عليهم ردا رصينا يخضع للمعايير العلمية الأكاديمية المتعارف عليها علميا،في محاولة لتصويب أخطائهم سواء كانت عن قصد أو عن غير قصد،لأن هؤلاء المستشرقين غير معلقين في الهواء «إنهم مثلنا نتاج حضاراتهم ولغاتهم وآدابهم وتاريخهم وعقائدهم عبر قرون، إنهم يعلمون ويجهلون ويصيبون ويخطئون ويحايدون وينحازون»[56]، وأصبح واضحا أنهم لا يقدرون على التجرد من ذاتيتهم كاملة، لأن المرجعيات الدينية، والعقائدية، والعرقية، والسياسية تؤثر فيهم، نحن نرى أن مجمل هذه المعطيات والصعوبات ينبغي أن نتقبلها في قراءة الآخر الغربي، لأنهم أراد أن يدرك الإسلام بأدواته المفاهيمية، وذلك قدر الإمكان، فالمستشرق «الآتي من قلب الحضارة الغربية يحمل في ملامحه وفي أدواته وفي مناهجه ملامح هذه الحضارة الغربية وأدواتها ومناهجها، حتى لم زعم الخروج منها أو عليها دينيا أو التزاما بدين أو إيمان، إنه عادة نتاج حضارة وخلاصة مسيرتها، التي تختلف عن الحضارة العربية والإسلامية»[57]، لتضرب على ذلك مثلا حالة هؤلاء الذين اعتبروا بمثابة جسر تربط بين الشرق والغرب،كحال "لويس ماسينيون"، و"جاك بيرك"،"آنا ماري شيمل"، فالواقع أن الكثير من المستشرقين المنضوين تحت الرؤية الحوارية قد حققوا «إنجازات علمية ومعرفية وثقافية هي بصورة عامة لصالح العرب والمسلمين،فالمستشرقون هم الذين عرفوا بالثقافة العربية الإسلامية، وقدّموها إلى المجتمعات الغربية والعالم، مما رفع مكانة العرب والمسلمين، إذ أخذ العالم ينظر إليهم أمة ذات حضارة عريقة»[58]، ويبقى صحيحا بأن المهمة الملقاة على عاتقهم من تقديم العرب والمسلمين إلى «الرأي العام الغربي، والعالمي كموطن لشعوب ذات حضارة راقية لا شعوب همجية بربرية مثلما تدَّعي الأوساط الاستعمارية والصهيونية»[59].

ونلاحظ حتى يومنا هذا أن بعض البحوث الدائرة في مجال الاستشراق تهتم فعليا بحوار الحضارات،وبوجيز العبارة تهدف إلى «تحقيق عالم يخلو من ويلات الحروب ولا يعرف كوارث التعصب و التطرف عالم يغتني بالتسامح ويثري بوحدة التنوع الخلاق ويسعى إلى السلام،سعيه إلى التقدم الذي يعم الإنسانية كلها،وما ظل هذا الهدف قائما فإن حوار الحضارات هو البديل المنقذ من الصراع،وهو النتيجة التي تعتمد على تفاعل الثقافات بما يتسع بآفاق الفهم المشترك،ويقبل الاختلاف والمغايرة، الأمر الذي يحفظ لكل ثقافة خصوصيتها»[60]. وأمام هذا الفهم سوف نذكر بعض مؤلفات بيرك التي تخدم هذه الرؤية:

- أندلسيات،1981(Andalousie)

- مذكرات بين الضفتين، 1989Mémoires des deux rives)

- العرب،1964.(LesArabes)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- اللغة العربية في الوقت الحاضر، 1974(LangagesArabes du présent)

- ويبقى هناك مستقبل،1993(Il reste un avenir)

- المغرب بين الحربين،1962(Le Maghreb entre deux guerres)

مما لا ريب فيه أن أنصار حوار الحضارات والثقافات والديانات يحترمون تنوع المواقف والرؤى والمقاربات، ويوضحون ضرورة الاهتمام بالآخر واحترامه وتقديره في إطار الغيرية، ونبذ العنف من طرف العرب والمسلمين والتجلي بالروح العلمية في الرد على مغالطاتهم وسوء فهمهم لنا المبثوثة في بعض الدراسات الاستشراقية.

3ـ المنحى العلمي في المنجز الاستشراقي البيركي

1.3 الملامح العلمية عند جاك بيرك

لقد شهدت أوروبا الغربية في القرون الماضية فتوحات جغرافية وعلمية وفلسفية ولاهوتية- دينية،مما جعلها تدخل الحداثة من بابها الواسع، والتصورات الحديثة بلورت مناخا مناسبا لتكوين جيل من نوع خاص في أوروبا الغربية، له رؤية واسعة للمسائل الأكثر تعقيدا.

فقد اصطدم العقل الغربي بالأمور الدينية،وشعر بالضرورة الملحة لاستخدام المناهج العلمية، وذلك لإزالة التناقضات، وقد تم ذلك على حساب مصلحة السلطة الدينية "الكنيسة"، ويبقى صحيحا الحديث بأن «الحداثة ولدت بدقة عندما تم تطبيق المناهج النقدية على النصوص المقدسة»[61]، وهذه البحوث الدائرة في مجال المقدس ساهمت عند البعض بإدخال الغرب عصر الحداثة، وفي مثل هذا المناخ المثير للاهتمام واصل جيل القرن التاسع عشر تقدمه إلى الأمام، حيث أغنى كل من فلهاوزن(Wellhawsen)،وغراف (Graf)، وإيفالد(Ewald) ،وإيشهورن(Eichhorn) ميدان النقد الأدبي للعهد القديم[62]، نقصد تلك الفئة الجريئة التي أرادت عقلنة الدين، ويفعلون ذلك عن طريق استخدام المنهجية العلمية، إذ من المعروف أن القرن التاسع عشر قد انتعش كثيرا بتطبيق تلك الأفكار.

فقد ارتفعت في أوروبا الغربية بعض الأصوات الداعية إلى الأخذ بهذا التصور، و«دراسة الكتاب المقدس كأي كتاب آخر، وإخضاعه بدون قيد لمناهج البحث العلمي»[63]، وانتشر هذا الموقف واتسع تدريجيا في الغرب، وطبعا تراجع عنه البعض لصالح المواقف التقليدية، لأن«التفسير الذي نشأ عن هذا البحث لم يخضع لمراقبة السلطة الدينية أيا كانت»[64]، إن تطبيق هذه المناهج على الظاهرة الدينية يقتضي تحليلا للنصوص الدينية المقدسة.

ولعل هذا الميل إلى تقديس العقل سيكون له تأثيرات واضحة في مجال الدراسات الاستشراقية، ويدرك "جاك بيرك" كل الإدراك أن ما سيقوم به ما هو في حقيقة الأمر إلا بحث سيحاول فيه«أن يحيط مجددا بالنصوص الكبرى التي فهمتها الأجيال السابقة على طريقتها»[65]، فقد حاول إذن أن يتسلح بمنهجية عصره، وكل هذا الكلام يعني تلقي النصوص المقدسة من جديد، وذلك بالانخراط في عملية إعادة قراءتها، وراح يعترف عن طيب خاطر بأنه يريد مقاربة القرآن ليس «من موقف الإيمان ولكن من موقف البحث والموضوعية النقدية»[66].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المراجعة النقدية الاستشراقية المنهجة التي تدعي الموضوعية تجعل من «العلاقة بين الاستشراق والإسلام علاقة ذات بموضوع دراستها، وعلاقة باحث بمادة بحثه، إذن هي علاقة بين كائن واعي بموضوع هذا الوعي»[67]، ويقوم المسعى العلمي الموضوعي إذن على جعل المستشرق دارسا (الباحث،ذات، كائن واعي، أنا عارفة) والإسلام مدروسا(مادة البحث،موضوع). وإذا ذهبنا بعيدا نرى أن الباحث الغربي يجعل من نفسه فاعلا للمعرفة وذاتا عارفة، والكائن الذي يعرف[68]، وبالمقابل يجعل من مادة بحثه تتعارض مع ذاته[69]، إذن لا يكفي أن نردد بأن هدف العلم هو حوار الديانات والثقافات والحضارات، بل هو الدراسة الموضوعية البعيدة عن الذاتية (القلب) للظاهرتين الثقافية والدينية، ويلجأ في أماكن عديدة إلى انفصال الذات عن الموضوع[70]، ونضرب على ذلك مثلا طريقة إخضاع الغرب التراث العربي والإسلامي للمسائلة العلمية.

ولم يكن أن تكون الأمور على غير هذا النحو، ذلك أن "جاك بيرك" وزملائه تأثروا بالمنهجية العلمية الموضوعية، بل يذهب هذا الأخير إلى أبعد من ذلك، يعتقد بأنه استكشف أثناء محاولته "إعادة قراءة القرآن"، مقاربة تطمح إلى الاستناد إلى «موقف البحث والموضوعية»[71]، وللوهلة الأولى غالبا ما يبدو بيرك مركزا على البحث العلمي المختص.

وبنهوضه بهذه المهمة المتخصصة يكسب أهمية كبيرة داخل إطار الاستشراق العلمي ولا يجوز أن يفوتنا التذكير ببعض منجزاته العلمية:

- "البنى الاجتماعية للأطلس العالي"، 1955 (Structure sociales du haut-atlas)

- "التاريخ الاجتماعي لقرية مصرية في القرن العشرين" 1958، (Histoire sociale d'un village égyptien au XXe siècle)

- "مصر، الإمبريالية والثورة"، 1967 (L'Egypte impérialisme etrévolution)

- "الشرق الثاني"، 1970 (L'orient second)

- "العرب"، 1973 (Les Arabes)

- "من وادي الفرات إلى جبال الأطلس، 1978، (De l'Euphrate à l'Atlas)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2.3 اكتشاف بيرك للشرق الثاني

1.2.3 الاستشراق الكلاسيكي والشرق الأوّل

طور الأدباء الأوروبيين عن طريق كوكبة من الأدباء الرحالة(شاتوبريان، فلوبير، لامارتين، نرفال، هوجو) استشراقا أدبيا اعتبر الشرق بمثابة أرض للأحلام.

فاخترع هؤلاء على المستوى الأدبي شرقا مفترضا يتغذى من الخيالات الأدبية والفنية الأدبية[72]. ووقع الاستشراق تحت تأثير هذه الرؤية الأدبية. ونهجت بعض البحوث الدائرة في مجال الاستشراق إلى عدم الاهتمام بربط الإسلام بالواقع.

وظل الاستشراق الكلاسيكي(القديم)مهتما بالشرق الأول وجعل منه موضوع دراسة، وكان يهدف من وراء ذلك إعادة بناء«أثر أركيولوجي»[73].هذا التصور بلوره الاستشراق القديم بعد أن نظر إلى الشرق على وجه العموم والعرب والمسلمين على وجه الخصوص بأنهم مجرد متحف أثار القدماء وبدون روح، ونظر إلى الحضارة العربية والإسلامية بأنها حضارة منقرضة مثل الحضارات القديمة، فالعرب كانوا قديما وليس اليوم، وعرب اليوم هم مجرد أشباح وظلال.

2.2.3 الاستشراق البيركي الجديد والشرق الثاني

استمر الأمر على هذا النحو حتى مجيء بيرك الذي تفطن إلى عبارة"الشرق الأول" ستبقى منبعا لمختلف اشكال الضبابية. فدعا الى شق درب استشراقي جديد يأخذ بعين الاعتبار الواقع الجديد للشرق محاولا تكييف المناهج الاستشراقية مع الأوضاع الشرقية الجديدة[74].

والمهمة الملقاة على عاتقه تهدف إلى ابتكار وتأصيل مفهوم عبارة"الشرق الثاني" يقصد ذلك الشرق الذي اكتشفته العلوم الاجتماعية ورأت انه يستجيب للقوانين نفسها التي يخضع لها الغرب[75]. وهكذا كشفت العلوم الاجتماعية عن الطبيعة الواحدة للغربي والشرقي.

وعلى هذا الصعيد بلور بيرك هذا التصور الجديد للشرق مطورا بذلك طرائق الاستشراق الجديد. ويهدف من وراء ذلك الى مسائلة ذات حية فعليا[76]، جاعلا من العرب والمسلمين إحياء وشركاء للغرب في وقت واحد. وبناء عليه تراجع بيرك عن المواقف الاستشراقية التقليدية التي تجعل من العربي موضوعا للدراسة بدون نفس.

وحدث هذا التحول الثوري نتيجة انعقاد مؤتمر باندونج عام1955، ومن خلال نتائجه تحررت البلدان العربية والإسلامية من قبضة الاستعمار الانجلو-فرنسي وسقطت هكذا الامبريالية.

إنّ الميراث الثقافي والفكري المتراكم في القرن العشرين غذى عقل بيرك عن رغبة عميقة منه لامتلاك كم من المناهج والطرائق جعلت منه يطيل الكلام في المسائل العربية والإسلامية بطرق علمية مركبة تنحو منحى الدراسات الثقافية التي تتكئ على كرنفال من المناهج.

خاتمة (نتائج وآفاق)

وهكذا أسفر البحث عن إمكانية النظر إلى المنجز الاستشراقي البيركي لكونه أثار تعجبا داخل الأوساط الفكرية العربية فقد اعتبر معبرا عن حصيلة تجربة استشراقية فريدة خلفت نمط من كتابات تخضع في وقت واحد لنزعات الدراسات الاستشراقية المنصفة وغير المنصفة والعلمية كذلك. وقد فرض ذلك الكشف عن وجهات النظر المتباينة التي تتجاذبه. وقد أتاح لنا التحليل الكشف عن خصوصياته والتي تمثلت في فكره الاستشراقي الزئبقي الأكثر إحراجا وعرضة للجدل والنقاش وبالتالي يصعب الإمساك به معرفيا لأدانته فكريا.

أما عن الأفاق التي يفتحها هذا البحث فلسنا ندعي أن البحث قد استنفد كل القضايا الاستشراقية البيركية التي نشرها فالنتائج التي انتهت إليها هذه الدراسة يمكن أن تكون منطلقات لأبحاث أخرى تتولى وصف وتحليل المنجز الاستشراقي البيركي ذلك أن فحص صلة موضوع إعادة قراءة القرآن يمكن أن تكون أفقا من آفاق الدراسات الاستشراقية التي ترمي إلى لمس دوره في تفسير غربي للقرآن الكريم.

وتتمثل أهم نتائج البحث فيما يلي:

- الاستشراق ليس كتلة واحدة.

- الاستشراق موضوع للدراسة معقد.

- المآخذ الحقيقية للدراسات الاستشراقية البيركية هي الدراسات القرآنية والإسلامية.

- تختزن كتاباته بعض الأمور الخبيثة عن العرب والمسلمين.

- يشكل"جاك بيرك" حلقة وصل بين الشرق والغرب.

- إن "جاك بيرك" دارس، والإسلام مدروس، وقد ادعى الموضوعية والابتعاد عن الذاتية في إنتاجه الاستشراقي.

- يطبق جاك بيرك كرنفال من المناهج والطرائق.

- االمستشرقون عموما يرون ثقافتهم، وعرقهم، وعلمهم، ودينهم عندما يدرسون الإسلام.

- مهما تغيرت التكتيكات الاستشراقية، يبقى الهدف الرئيسي مرسوما منذ العصر الوسيط، ألا وهو دحض الإسلام.

الهوامش

1 -Voir : J. B. J. Waardenburg, mustashrikun, In Encyclopédie de l'Islam, Tome VII, .E.J.Brill, Leyde –G.-P. Maisonneuve, Paris 1986. P : 750

2- صمويل هنتنجتون، صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي)، تر: طلعت الشايب، سطور، ط.2، 1999، ص.295.

3- المرجع نفسه، ص.343.

4-محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، 1997، ص.11.

5- عبده عبود، الأدب المقارن (مشكلات وآفاق)، منشورات اتحاد الكتاب العرب،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القاهرة، 1999، ص.135.

6- المرجع نفسه، ص.135.

7- حسن عزوزي، آليات المنهج الاستشراقي في الدراسات الإسلامية، مطبعة آنفو برانت، فاس-المغرب، د.ط، 2007، ص.52.

8- جاك بيرك (1910-1995)، مستشرق فرنسي غزير الإنتاجات نذكر منها/ العرب بين الأمس والغد، مصر الإمبريالية والثورة بالشرق الثاني، من وادي الفرات إلى جبال الأطلس، إعادة قراءة القرآن، أي إسلام؟ أندلسيات، العرب، مذكرات بين الضفتين، الإسلام والتحدي، اللغة العربية في الوقت الحاضر، ويبقى هناك مستقبل، المغرب بين الحربين، القرآن: محاولة ترجمته من العربية متبوعة بدراسة تفسيرية، أوبيراميندورا.

9- أحمد الشيخ، حوار الاستشراق، المركز العربي للدراسات الغربية، ط.1، 1999، ص.27.

10- جاك بيرك، العرب من الأمس إلى الغد، تر: علي سعد، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، 1982، ص.07.

11- Voir : Thierry Fabre, «Au-delà de l'orientalisme : entretien avec Jacques Berque», In la revue Qantara, N°13, Oct. Nov. Déc. 1994, Institut du Monde Arabe, Paris, P.40.

12- مجلة فكر وفن، عدد 81، السنة الثالثة والأربعون، 2005، معهد غوته، ألمانيا، ص.01.

13-ThierryFabre,«Au-delà de l'orientalisme», Op.cit., P.40 «maintenant j'accepte cette appellation, c'est, depuis le livre d'Edward Saïd, par solidarité avec des collègues que je voyais injustement attaqués».

14- زينب عبد العزيز، ترجمات القرآن إلى أين، مكتبة وهبة، القاهرة، ط.1، 2005، ص.11.

15- المرجع نفسه، ص.132.

16-ThierryFabre,«Au-delà de l'orientalisme»,Op.cit.,P.40-41 «Le rejet de l'orientalisme- c'est- à- dire d'une partie de la connaissance occidentale- est rejet négatif, insoutenable [...] en effet, on voit personne en orient rejeter les avions, les ordinateurs et les automobiles».

17-ThierryFabre,«Au- delà de l'Orientalisme», Op.cit., P.45. «Les orientalistes ont enseigne aux savants arabes les nouvelles méthodes d'étude des textes, de questionnement et d'induction à partir d'indices, de recherche et de découverte de sources, bref de critique historique. Tout cela est parti de l'occident Pui est arrivé aux savants musulmans».

18- إدوارد سعيد، الاستشراق (المفاهيم الغربية للشرق)، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط.1، 2006، ص.99.

19-Voir :HadrougMimouni, L'islam agressé, Entreprise nationale du livre, Algérie, 1990, P.182

20 -Voir : Ibid., P : 253

21 -Voir : Berque-Sure, Les Arabes l'islam et nous, (arte Edition) Editions Mille et Une Nuit Edition, mars1996, p.09

22- إدوارد سعيد، الاستشراق ، ص.325

23- المرجع نفسه، ص.ص. 1012-102.

24- المرجع نفسه، ص.10424

25- المرجع نفسه، ص.10925

26 - Voir : Berque-Sure, Les Arabes l'islam et nous, (arte Edition) Editions Mille et Une Nuit Edition, mars1996, p.99

27-Voir : Ibid., P.10

28- إدوارد سعيد، الاستشراق، تر: محمد عناني، ص.9928

29- المرجع نفسه، ص.12729

30-أحمد الشيخ، حوار الاستشراق، ص.23.

31- Voir : Meriem Mahmoudi, «Jacques Berque en l'incitation au dialogue de civilisation», In journal le Quotidien d'Oran, N°1430, 10 Juin 2009, Algérie, p.8.

32- Le coran, Essai de traduction par Jaques Berque, Edition Albin Michel, S.A, 1995, Paris, P.15. «Toutes les authenticités se rejoignent : celle de la vieille maison où nous vécûmes ces années de travail dans un terroir villageois du sud- ou est de la France, étape millénaire sur la route de Saint- Jaque de Compostelle».

33- Le petit Larousse, dictionnaire encyclopédique, Libraire Larousse, 12re 2dit, Paris, 1998, P.1539 «L'un des pèlerinages les plus fréquentés de la chrétienté occidentale [...] ce pèlerinage prit de l'ampleur aux XIe, avec la Reconquista».

34- بيرند توم، "الشرق (الغريب) في تراث أوروبا الفكري"، مجلة فكر وفن، عدد59، السنة الحادية والثلاثون، 1994، معهد غوته، ألمانيا، ص.4.

35- المرجع نفسه، ص.05.

36- زينب عبد العزيز، ترجمات القرآن إلى أين؟ ص.13.

37- المرجع نفسه، ص.67.

38- حسن عزوزي، آليات المنهج الاستشراقي في الدراسات الإسلامية، ص.123.

39- المرجع نفسه، ص.26.

40- المرجع نفسه، ص.27.

41- ينظر: عبده عبود، الأدب المقارن، ص.135.

42- المرجع نفسه، ص.135.

43- المرجع نفسه، ص.135.

44- مونتجمري وات، الإسلام والمسيحية، تر: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998، ص.27.

45- Thierry Fabre, «Au-delà de l'orientalisme»,Op.cit., P.40. «Comment rejeter le regard de l'autre, alors que nous savons très bien que sans l'autre nous ne serions pas?».

46 - Voir : Meriem Mahmoudi, article " Jacques Berque en l'incitation au dialogue des civilisations", journal le Quotidien d'Oran,N°1430, Algérie, 10 juin 2009, P : 8.

47 - Le coran, Texte, traduction française et commentaire d'après la tradition les différentes écoles de lecture d'exégèse, de jurisprudence et de théologie, les interprétations mystiques, les tendances schismatiques et les doctrines hérétiques de l'Islam, et à la lumière des théories scientifiques, philosophiques modernes par le cheikh si Hamza Boubakeur, .Tome II, Librairie Artheme Fayard, France, 1979,P.1650-1651. «Le dogme de l'Islam est l'objet de recherche sérieuses entreprises sous un angle de vue tout nouveau. Une telle modification d'attitude et l'esprit est due à l'œuvre considérable, à l'autorité et à la notoriété d'éminent personnalités chrétiennes éprises de vérité, de tolérance et de fraternité humaines».

48- HadrougMimouni, L'islam agressé, Entreprise nationale du livre, Algérie, 1990, P.191. «Monsieur Jacques Berque est un orientaliste de l'école moderne, celle de l'après Massignon».

49- Ch. Bouamrane, L. Gardet, Panorama de la pensée islamique, 2eme Ed, Sindbad, Paris, 1984, P.13. «Le respect pour l'objet étudié, remplacèrent progressivement les jugements (injuste et faux) portées de l'extérieur».

50- Le Coran, traduit de l'arabe par Jean Grosjean, PhilippeLebaud, Paris, 1979, P.35. «Il prolonge une rencontre».

51- ينظر: أحمد الشيخ، حوار الاستشراق، ص.26.

52- المرجع نفسه، ص.28.

53- Voir : Meriem Mahmoudi, article " Jacques Berque en l'incitation au dialogue des civilisations",Op.cit., P : 8.

54- عبده عبود، الأدب المقارن، ص.143.

55- محمود العزب، إشكالية ترجمة معاني القرآن الكريم، نهضة مصر، مصر، ط.1، 2006، ص.07.

56- المرجع نفسه، ص.ص.19-18.

57- المرجع نفسه، ص.29.

58- عبده عبود، الأدب المقارن، ص.138.

59- المرجع نفسه، ص.138.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

60- جابر عصفور، حوار الحضارات والثقافات، كتاب في جريدة، ع.101، الأربعاء 3 كانون الثاني (يناير)، 2007، (أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996)، MBI، المؤسسة الراعية-الشريك الثقافي، اليونسكو Unesco، ص.23.

61- Jean Hadot, «Bible», InEncyclopaediauniversalise, corpus4, Editeur à Paris, France S.A 1993, P.89. «Le modernisme est né précisément de l'application des méthodes critiques aux textes sacrés».

62- Voir : Ibid., P.89.

63- Ibid., P.89. «Le livre sacré doit être étudié comme n'importe quel autre livre et soumis sans restriction aux méthodes scientifiques de recherche».

64- Ibid., P.89. «L'interprétation qui résulte de cette recherche n'a pas être soumise au contrôlé d'une autorité religieuse quelconque».

65- جاك بيرك، إعادة قراءة القرآن، ترجمة: منذر عياشي،مركز الإنماء الحضاري، سورية، ط2، 2005، ص.28.

66- المرجع نفسه، ص.29.

67- Tarek el Bechir, «de l'Islam et de l'orientalisme», Traduit de l'arabe par FayezMalas, In la revue Quatara, N°13 Oct. Nov. Déc. 1994, Institut du monde Arabe, Paris, P.32. «Le rapport entre l'orientalisme et l'Islam est un rapport de sujet à objet de chercheur à matière de recherche, c'est donc un rapport entre un être conscient et l'objet de cette conscience».

68- ينظر:أندريهلالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثالث، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط.2، 2001، ص.1383.

69- ينظر : المرجع نفسه، ص.897.

70- 2005-10-24- Kropp- a d s l

المحاضرة بعنوان «الدراسات القرآنية الغربية»، ألقاها المستشرق والفيلولوجي الألماني"مانفريد كروب"بالكوليج دي فرانس (Le collège de France) يوم 24/10/2005

71- جاك بيرك، إعادة قراءة القرآن، ترجمة : منذر عياشي، ص.29

72- Voir : Thierry Fabre, «Au-delà de l'orientalisme»,Op.cit., P.42

73-A.L.Udovich et A.-M.Turki, "autour d'une traduction du Coran" (Jacques Berque), InStudiaIslamica, Ex fasciculo LXXIX, G.-P. Maisonneuve&Larose, Paris, 1994. P.184«la restitution d'un objet archéologique»

-ينظر:إدوارد سعيد، الاستشراق، تر: محمد عناني، ص.ص.18774-186

75- Voir :Thierry Fabre, «Au-delà de l'orientalisme»,Op.cit., P.42

76-A.L.Udovich et A.-M.Turki, "autour d'une traduction du Coran" (Jacques Berque), InStudiaIslamica,Op.cit., P.184«l'interrogation d'un sujet bien vivant»

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com